الحكم على الشعر
وأساليب النقد والتحليل
للدكتور محمد صبرى

كتب « أستاذ جليل » في الأسبوع الفائت يقول : « للدكتور محمد صبرى » أن ... ى فى مقالته ... أن نونية أبى تمام فى رثاء ولده قد فاتت ... بته فى محمد بن حميد الطوسى التى يقول فيها :

فتى كان عذب الروح لا من غدا سة
ولكن كبراً أن يقال به كبر

« والأستاذ عبد الرحمن شـ ... رى أن يستعجب فى إحدى مقالاته كيف أن حبيباً — ود ... فى الرثاء ما هو — لم يجد فى النونية إجادة ابن الرومى فى الـ ... لية التى رثى بها ولده . غير أن تلك القصيدة فائقة كانت أو مقاربة ليست لأبى تمام وإن جاءت فى ديوانه المطبوع ، وفى المخطوط فى دار الكتب ... »

ودليل حضرة الكاتب على أن النونية ليست لأبى تمام هو « أن أبا بكر الصولى روى القصيدة بتمامها فى (كتاب الأوراق) لأبى محمد القاسم بن يوسف ، وروى بعدها « دالية للقاسم فى رثاء ابنه محمد وبنين آخرين له تجانسها كل المجانسة » والصولى مشغوف بحبيب ، وهو الراوية العظيم ... وما حدثتنا (أخبار أبى تمام) ولا المؤلفات التى كتبت سيرة حبيب أن له ابناً ، كنيته أبو على ... ولا أن له ابناً اسمه محمد ولا نعرف لحبيب ولداً إلا « تماما » كان هناً محمد بن طاهر حين ولى خراسان الخ »

قد يكون الصولى راوية عظيما فى عصره ؛ ولكن كتبه فى اعتقادى ينقصها التحقيق العلمى وكلها حلقات من روى فلان عن فلان ، وحدثنا ... هذا من ناحية الرواية ؛ أما ناحية الأدب فيه فلا أظنها كاملة من حيث الذوق والصقل ، ولذلك فإن كتبه وكتب غيره لم تستوعب أخبار أبى تمام ولم تدقق فيها . وإننا لا نعرف إلا القليل من حياة حبيب ومعاصريه بل من حياة العصر العباسى نفسه ، فالطبرى وابن الأثير والمسعودى يكررون نفس الروايات ، والنساخ يمسخون أسماء الأعلام ، فترى الاسم الواحد يختلف باختلاف المؤلف والناسخ . ومن الصعب أن تهتدى إلى تاريخ قصيدة أو إلى تاريخ موت وزير كبير رثاه الشاعر بقصيدة معروفة . بل إن البحترى تكلم عن حوادث حربية هامة لا تتفق مع رواية تواريخنا الكبرى إذا ذكرت فيها ... بينما تذكر الحوادث التافهة بإسهاب وفى غضونها الشعر السقيم ...

ولو دقق حضرة الأستاذ الفاضل النظر لتبين له أن الصولى لم يكن من المدققين لأنه روى دالية للقاسم « فى رثاء ابنه محمد وبنين آخرين » ولتبين له أن هذه القصيدة الدالية لا تجانس النونية كل المجانسة !

روى الصولى فى كلامه عن شعر القاسم (وقال يرثى أولاده) فلم يذكر لنا أسماء أولئك البنين ، بل إن المتأمل فى القصيدة يرى عجباً ، يرى أن البنين ، إذا كان هناك بنون ، هم : محمد ومحمد ومحمد !

هلك البنون محمد ومحمد ومحمد

من الأثر فى عقول أبناء هذا الجيل ما يعلمه كل ذكى لبيب

كان ذلك فى وسعنا ولا جناح فيه علينا ، ولكننا وصلنا بالقرائن المعقولة والمقابلة السائغة إلى تصحيح السن على وجه لا يأذن لأحد بالتحمل والانتقاد ، ولم نتوسل إلى ذلك بإنكار آية أو حديث أو أصل من أصول الدين ، ولكننا تناولنا السنوات والتواريخ بالشك الذى تستحقه ، وهى تتسع فى أشيع الروايات لفرق السنة والسنتين والعشر والثلاثين ... فماذا فى هذا كله من دواعى التهويل والصريخ ؟ وما سر الاستهانة فى تخطئة هذا التصحيح والإصرار على أن السيدة عائشة تزوجت فى السابعة أو التاسعة ولم تتجاوزها ، مع أن النص المكتوب — ولا نذكر القياس والاستنتاج — قد زادها إلى عشر سنين ؟

أما دواعينا نحن فهى تلك الأسباب وتلك القرائن وكلها مما يوافق التنزيه الواجب لمقام الرسول

وأما دواعى المنكرين التى دعتهم إلى تسجيل تلك السن دون غيرها فعليهم هم أن يبينوها وينظروا أينا أقرب إلى البر بالإسلام ، وأحرص على تعظيم نبيه عليه السلام .

عباس محمود العقاد

واستأثرت بهم المنيـ ـة والمنية موعد

وبعد أن استطرد الشاعر إلى ذكر الأحبة والقرناء الذين يطويهم الموت فى أبيات ممدودات عاد إلى رثاء ابنه محمد الذى يكنى بأبى على :

أسفاً عليك أبا عـلـ ـي والمنـايا رُصَّد
أسفاً عليك أبا عـلـ ـى يوم ضمك ملحد
كالبدر فارقه النحو ـس وقارنته الأسعد

والقسم الأكبر والأخير من القصيدة لم يذكر فيه الشاعر إلا ابنه محمداً ، وظاهر أنه كان ابنه الوحيد :

هل لى على الحزن الطوي ـل سوى (لبابة) مسعد
تكلى بواحـــدها فلي ـس لهـا عليه تجلد
ألُباب إن الصبر أبـ ـقى للاله وأرشـــد

والواقع أنه لا تجانس بين هذه الدالية وبين نونية أبى تمام ؛ فالدالية قصيدة فقيه زاهد ، والنونية قصيدة شاعر . والواقع أنه لم يكن هناك بنون بل ابن واحد هو أبو على محمد ، والقاسم حين يقول فى بدء القصيدة :

هلك البنون محمد ومحمـــد ومحمـــد

فإنما أراد التهويل من شأن مصابه بطريقة أقل ما يقال فيها إنها لا تدل على (شاعرية) كبيرة

والواقع أن أبا تمام كان له ابن اسمه محمد وكان للشاعر اخوة ؛ وقد رثى الجميع بأربعة أبيات من الشعر الذى تتجلى فيه شخصيته :

فلا يشمت الأعداء بالموت إننا
سنخلى لهم عن عرصة الموت موردا
ولا يحسبُنَّ الموت عاراً فإننا رأينا المنايا لم يدعن (محمدا)
ولا يحسب الأعداء أن مصيبتى أكانت لهم منى لساناً ولا يدا
تتابع فى عام بُنَىَّ وإخوتى فأصبحت إن لم يخلف الله مفردا

ففى نونيته يقول أبو تمام :

بنى يا واحد البنينا غادرتنى مفرداً حزينا

وفى هذه الأبيات يقول :(فأصبحت إن لم يخلف الله مفرداً) . وقد أخلف الله عليه فرزقه (تماما) الذى ورد ذكره فى تهنئة محمد بن طاهر عند ولايته خراسان ، فمعلوم أن أبا تمام ولد سنة ١٩٢ هـ ومات سنة ٢٣١ . ويمكننا أن نفرض أنه تزوج فى سن العشرين تقريباً أى فى سنة ٢١٢ أو ٢١٥ وأن ابنه محمداً مات صغيراً قبل العاشرة أو حواليها أى فى سنة ٢٢٢ أو ٢٢٥ ، وفى هذه السنة عينها مات إخوته (تتابع فى عام بُنىَّ وإخوتى)

وإنى أكرر أن نونية أبى تمام من رائع الشعر . وإنى أدع جانباً الأبيات التى ذكرتها من قبل والتى صور فيها ابنه وهو على فراش الموت ، وأجتزىء هنا بذكر أربعة أبيات أخرى من آخر القصيدة تطل من أسلوبها وكلماتها روح حبيب :

تصرف الدهر بى صروفا وعاد لى شأنه شـــؤونا
وحز فى اللحم بل براه واجتث من طلحتى فنـونا
أصاب منى صميم قلـبى وخفت أن يقطع الوتينا
فالمرء رهن بحالتيـــه فشدةً مرة ولينـــا

ولم يرو الصولى البيت الثانى

وقد نظم أبو تمام الأبيات الدالية التى رثى بها إخوته وابنه محمداً بعد النونية ، ويظهر أنه عند نظمها كانت امرأته « تحمل » تماما ... الذى مات عنه صغيراً ، وقد ولى محمد بن طاهر خراسان فى سنة ٢٤٨ هـ فتكون سن تمام وقت تهنئته ابن طاهر ٢٥ سنة تقريباً ، ولا أظن تماما روى عن أبيه شيئاً ، لأنه لم يكن يتجاوز الثامنة أو التاسعة عند موته

ولعل فقدان حلقات كثيرة فى حياة الشعراء وعدم وجود ملكة التمحيص والتحقيق هما اللذان دفعا الصولى إلى نسبة نونية أبى تمام إلى القاسم لاشتراك ابنيهما فى الاسم والكنية

ولنعد الآن إلى الأبيات التى صور فيها الطائى ابنه وهو صريع الموت والداء :

آخر عهدى به صريعاً للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غصـــة وكربا لاحط أو راجع الأنينا
يدير فى رجعه لسانا يتمه المـــوت أن يبينا
بشخص طـــوراً بناظريه وتارة يطبق الجفـونا
ثم قضى نحبـــه فأمسى فى جدث للثرى دفينا

وقد جاء فى الديوان بعد ذكر القصيدة النونية ما يأتى :

وقال فى أخ له وحضر وفاته

لله مقلته والموت يكسرها كأن أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرهاً وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصُن

فملكة التصوير واحدة فى القطعتين ؛ وملكة التصوير هذه لا تجدها إلا عند فحول الجاهليين والإسلاميين ، وهى خاتم الجلال العتيق الذى يزين ملامح الشعر العربى ويميسم الحسن والروعة والجمال .

محمد صبرى